في كل ليلة حكاية

١٩

و لكم أنتم أهل السفينة هجرتان

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

يا حَبذا الجنَّةُ واقتِرابُهَا!!

فِي صَبِيحَةِ هذا اليَوْمِ رَاحَتْ مكبِّراتُ الصَّوتِ تَصدحُ بآياتِ الذِّكرِ الحَكِيمِ ، وراحَ النَّاسُ يَتساءَلُونَ: ما الذي حَدثَ؟ فليسَ اليَوْمُ يَوْمَ جُمُعةٍ ، ولا هُوَ يومَ عِيدٍ ، فلماذَا قِراءَةُ القُرآنِ في هَذا الوَقْتِ بالذَّاتِ؟!

وما مَضى على ذلكَ قرابةَ نصفِ ساعَةٍ حتَّى شاعَ خبرُ استشهادِ ثلاثةٍ مِنْ شَبابِ البَلدَةِ ، وكانُوا في جنوبِ لُبنانِ ، حيثُ نَفَّذُوا عمليةً عَسكريةً ضدَّ العدوِّ الإسرائيليِّ ، وسَقطُوا شُهداءَ في سبيلِ اللهِ.

واجتمعَ أهلُ البَلدةِ في السَّاحةِ الرَّئيسيَّةِ قُرْبَ المَسجدِ الكَبيرِ ، ووُضِعَتِ الجَنائزُ الثَّلاثَةُ وقدْ لُفّتْ بالأعلامِ.. ووقفَ شابٌّ مثقّفٌ واسمهُ (مُحمَّد) على مَكانٍ مُرتَفِعٍ ، وَقالَ: أيُّها النَّاسُ ، بِكلِّ تَسليمٍ مُطلَقٍ للهِ نُودّعُ شبابنَا الشُّهداءَ بِقولِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «إنَّ العينَ لتدمعُ ، وإنَّ القلبَ ليخشعُ ، وإنَّا على فِراقِكَ يا إبراهيمُ لمحزونونَ ، ولا نقولُ إلاّ ما يُرْضِي ربَّنا ، وإنَّا للهِ وإنا إليهِ راجِعُونِ».

وتلا بعضَ آياتٍ من القرآنِ ، كالتي تتحدَّثُ عنِ الشُّهداءِ وحبِّ الجهادِ في سبيلِ اللهِ ، ثُمَّ ذكَّرَ النَّاسَ بما حدثَ فِي غَزوةِ مُؤتةَ:

في السَّنةِ الثَّامنةِ من الهجرَةِ ندبَ رسولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إلى غَزوةِ مُؤْتَةَ ، ولمَّا ودَّعَ الجيشَ قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «أميرُ النَّاسِ زيدُ بن

حارثةَ ، فإن قُتِلَ فجعفرُ بنُ أبي طالبٍ ، فإنْ قُتلَ فعبدُ اللهِ بنُ رواحةَ ، فإنْ قُتِلَ فليرضَ المُسلمونَ بينَهُمْ رَجُلاً فيجعلوهُ عليهِم».

ولمَّا التقَى الجَيشانِ.. وقاتلَ المُسلِمُونَ قِتالَ البَواسلِ، يشاءُ اللهُ أَنْ يسقطَ زيدُ بنُ حَارثَةَ شَهيداً ، فيستلمِ الرايةَ جعفرُ بنُ أَبي طالبٍ ، فركبَ فَرسَهُ الشَّقراءَ ، وراحَ يُقاتلُ قِتالاً لا مثيلَ لَهُ ، وكانَ يُنشدُ:

يـــا حَبَّـــذا الجنَّـــةُ واقتـــرابُهَـــا

طيِّبـــــة وَبـــــارداً شَـــــرابُهـــــا

والـــرُّومُ رُومٌ قـــد دنَـــا عَـــذابُهـــا

كَـــافـــرةً بَعيـــدةً أنســـابُهَـــا

عَلـــيَّ إذا لاقَيْتُهَـــا ضِـــرابُهـــا

وأثناء القِتالِ ضَربهُ أَحدُ المشركينَ على يَمينهِ ، فقُطعتْ ، فَأخذَ الرايةَ بِشمَالِهِ ، فَضربَهُ

آخرُ عليهَا ، فقُطِعَتْ ، فاحْتَضَنَها بِعَضُدَيْهِ ، حتَّى سقطَ شهيداً.

فاستلمَ الرَّايَةَ عبدُ اللهِ بنُ رَواحَةَ ، فوسوستْ لهُ نفسهُ: انظرْ إلى ما حدثَ لصَاحبيكَ! فمَا كَانَ منهُ إلاّ أَنْ خاطبَها قائِلاً:

أَقسمــتُ يــا نفــسُ لتنــزلنَّــهْ
لتنــــزلــــنَّ أو لتُكــــرهنَّــــهْ
إن أجلبَ الناسُ وشَدُّوا الرَّنَّه[1]
مَــالــي أراكِ تكــرهيــنَ الجنَّــهْ
قَــدْ طَــالمَــا كُنــتِ مطمئنّــه
هَــلْ أَنْــتِ إلاّ نُطفــةٌ فِــي شَنَّــهْ[2]

وَقاتَلَ حتَّى سَقَطَ شَهِيداً ، فأجمعَ المُسلِمُونَ على أَنْ يحملَ الرايةَ خالدُ بن الوَليد رَضِيَ اللهُ

---

(١) أي: رفعوا الأصواتَ بالصيحات.
(٢) أي: نطفة قديمة بالية.

عَنْهُ ، فأحكمَ خُطَّةً.. وكتبَ اللهُ النَّصرَ على يديهِ..

وَهبطَ الأمينُ جِبريلُ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ ، وأخبرهُ بِمَا حَدَثَ فحزنَ حُزناً شَديداً ، ونَعى الشُّهداءَ الثَّلاثةَ إلى المُسلمينَ..

ثُمَّ انطلقَ إلى بيتِ جَعْفَرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ.

تَرْوِي زَوجَتُهُ (أسماءُ بِنْتُ عُميسٍ) رَضيَ اللهُ عَنها ما حدَثَ ، فَتقولُ:

كُنتُ قَدْ عَجنتُ عَجِينِي ، وغسلتُ بَنِيَّ وَدَهَنْتُهمْ وَنَظَّفْتُهُمْ فإذا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَدخلُ علينَا فلمَّا رآني قالَ:

«ائتينِي بِبني جَعفرٍ».

قالَتْ: فأتيتهُ بهمْ فَشمَمَهمُ وذَرفَتْ عيناهُ.

فقلتُ: يا رسولَ الله ، بِأَبي أَنْتَ وَأُمِّي ما يُبكيكَ؟

أَبَلَغَكَ عن جَعفرٍ وأصحابِهِ شَيءٌ ، قالَ: «أُصيبُوا هذا اليَوم».

قالَت: فقمتُ أَصِيحُ ، واجتمعَ إليَّ النِّساءُ ، وَخرجَ رَسولُ اللهِ ﷺ وقالَ: «اصنعُوا لآلِ جعفرَ طَعاماً فإنَّهُ قد أَتاهُمْ أَمرٌ شَغَلَهُمْ».

ثُمَّ نَظَرَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى يمينهِ فَرأى ابنتهُ فاطمةَ تبكِي وتقولُ:

واعمَّاهُ! فقالَ ﷺ: «عَلى مثلِ جَعفرٍ فَلْتَبكِ البَاكيةُ».

ثمَّ انطلقَ رسولُ اللهِ إلى بيتِ زَيدِ بنِ حَارثةَ ، فلمَّا رأَى ابْنَتَهُ تَبكِي، بَكى عليه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

فقالَ سعدُ بن عُبادةَ: يا رسولَ اللهِ ما هذا؟

فقالَ معلِّمُ النَّاسِ الرَّحمةِ: «هذا شَوقُ الحَبيبِ إلى حَبيبهِ».

وأجهشَ الشَّابُّ (محمَّدُ) بِالبُكاءِ... ولَمْ يَعُدْ باستطَاعتِهِ متابعةَ الكَلامِ.. وارتفعتْ أصواتُ الرِّجالِ بِالبُكاءِ مَعَهُ.

فَمَا كانَ مِنَ الشَّيخِ إلاَّ أَنْ أَوعزَ إلى بعضِ الشَّبابِ بحملِ الجَنائزِ... وراحُوا يُردِّدُونَ: لا إلٰه إلاّ الله.. محمَّدٌ رسولُ الله.. وإنَّا للهِ وَإنَّا إليهِ راجِعُونَ..

وَدُفنَ الشُّهداءُ في المَقبرةِ الغربيَّةِ للبَلدَةِ.. وعَادَ النَّاسُ إلى حيثُ مجلسُ التَّعزِيةِ.. وَخَيَّمَ على البلدةِ حُزنٌ شديدٌ، فالشَّبابُ الثَّلاثةُ كانُوا شَباباً صَالحينَ.. من الذينَ يحبُّونَ الخيرَ لكلِّ النَّاسِ.. لكنَّهَا إرادةُ الله، ولا رادَّ لِحكمهِ سبحانَهُ وتَعالَى..

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾

وَفِي سَهْرَةِ ذلكمُ اليومِ الحَزينِ، اجتمعَ

الشَّبـابُ والفتيـاتُ حـولَ (أمّ أحمـدَ) وَراحُـوا يَطْرَحُونَ بعضَ التَّساؤلاتِ حولَ ما وردَ في كلمةِ الشَّابِّ (محمَّد) أثناءَ تَأْبِيْنِ الشُّهداءِ.

لكنّ (ابتهالَ) طَلَبتْ أنْ تُسلَّطَ الأضواءُ على زَوجةِ جَعْفَرِ بن أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عَنْهُ.. وليتعرّفوا على تلكمُ المَرأةِ الصَّابرَةِ المُحتَسبَةِ..

ووافقـتْ (أُمّ أحمـدَ) عَلـى ذَلكـمُ الاقتـراحِ الجميلِ... وَراحَتْ تَحكِي حكايةَ هذهِ اللّيلةِ، لتكملَ مَا قالَهُ الشَّابُّ المثقَّفُ (محمَّد)، فتَكُونَ حكايةً رائعةً...

قالتْ: شاءَ اللهُ تَعَالى للسيِّدةِ (أسماءَ بنت عُميسٍ) رضيَ اللهُ عَنْهَا أن تكونَ مَعَ زَوجهَا (جعفر بن أبي طَالبٍ) في عِدادِ السَّابقينَ إلى الإسلامِ، لذلكَ ينطبقُ عليهمَا قَوْلُ اللهِ تعالى:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ

ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾

[الواقعة: ١٠ ـ ١٤].

وبَدأَ مُسَلْسَلُ التَّعذيبِ والاضطِهادِ ، وتَحمَّلتِ السَّيدةُ أسماءُ معَ زَوْجِهَا أَلواناً مِنْ ذلكَ.

حتَّى إذا كَانتِ الهجرةُ إلى الحَبشةِ ، انطَلقتْ مَعَ زَوْجِهَا إلى هُناكَ ، ولبثَا بها سنين عَدداً.

وَفِي الحَبشةِ كانتْ لا تدعُ سَاعةً من نَهارٍ إلاّ مارستْ فيهَا العملَ الدَّعويَّ .. فهي لم تَذْهَبْ إلى هُناكَ للطَّعامِ والشَّرابِ والاستجمامِ على شواطِئَ البِحارِ.

إنَّما هَربتْ من بلادِهَا خَوفاً على عقيدتهَا.. ولا بدَّ أن تُكملَ المشوارَ.. وتشتهرَ بسيرتهَا الحَميدَة.. وَيصلَ خَبرُهَا إلى النَّجاشيِّ مَلكِ الحَبَشةِ....

فاستدعاهَا وطلبَ منهَا أَنْ تُرضِعَ ابنهُ معَ

ابنهَا.. فكانَ لَها مَيِّزةً عظيمةً عِندَهُ.. ويدورُ الزَّمنُ دَورتهُ ، ، وَتكونُ غَزوةُ خَيْبرٍ.

وَفي أثناءِ فَتْحِ خَيبر.. يصلُ المُسْلِمُونَ إلى المَدينةِ المُنوَّرةِ ، قَادِمينَ من الحَبَشةِ ، وَيكونُ مِنْهُمْ (أسماءُ بنتُ عُمَيسٍ) وزَوجُهَا (جَعفرُ الطيَّار) رضيَ اللهُ عَنْهمَا..

ولمَّا رأَى رسولُ اللهِ ﷺ جعفراً ، أَخذهُ وَقبَّله بين عَينيه ، وقالَ: «ما أدري بأيِّهما أَنا أُسَرُّ: بفتحِ خَيبرَ أم بقدومِ جَعفر؟!».

فَكانتْ فَرحةُ جَعْفَر لا حُدُودَ لَها ، حتَّى قالَ الرُّواةُ: إنه حَجَل: أي مَشى على رِجلٍ واحدةٍ إعظاماً منهُ لِرسولِ اللهِ ﷺ.

وَلكم أَنْتُم أهل السَّفينةِ هِجرتَانِ..!

تَابعتْ (أُمُّ أحمَدَ) الحكايةَ الرّائعةَ قائلةً:

يَروِي البُخارِيُّ فِي صَحيحِهِ بالسَّندِ المتَّصلِ إلى أَبي مُوسَىٰ الأشعريِّ أنَّهُ قال:

... وَكانَ أُناسٌ من النَّاسِ يقولُونَ لَنا - يعنِي لأهلِ السَّفِينَةِ - سَبقناكُمْ بِالهِجرَةِ، ودَخلتْ (أَسماءُ بنتُ عُميسٍ)، وهيَ ممَّنْ قدمَ معنَا على حَفصةَ زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ زَائرةً، وقدْ كانَتْ هَاجرتْ إلى النَّجاشيِّ فِيمن هاجَرَ، فدخلَ عُمَرُ على حَفصةَ وأسماءُ - رضي الله عنهم أجمعين - عِندَها.

فقالَ عُمرُ حينَ رأَى أسماءَ: منْ هَذِهِ؟

قَالتْ: أسماءُ بنتُ عُمَيسٍ.

قالَ عُمَر: الحَبشيةُ هذهِ؟ البحريةُ هذهِ؟.

قالتْ أسماءُ: نَعم.

قالَ: سبقناكُمْ بِالهجرةِ، فنحنُ أحقُّ بِرسولِ اللهِ ﷺ مِنكُمْ، فَغضبَتْ، وقالَتْ: كلاَّ واللهِ

كُنتمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ ويَعظُ جَاهلكُمْ، وكنّا فِي دارٍ أَوْ فِي أَرضِ البُعَداءِ البُغَضاءِ بالحَبَشَةِ، وذلكَ في اللهِ وَفِي رسولِهِ، وأَيمُ اللهِ لا أطعمُ طَعاماً ولا أشربُ شَراباً حتَّى أذكرَ ما قلتَ لِرَسولِ الله ﷺ ونحن كنَّا نُؤذَى ونخافُ ، وسأذكرُ ذلكَ للنَّبيِّ وأسألهُ ، واللهِ لا أكذبُ ولا أزيغُ ولا أَزيدُ عليهِ.

فلمَّا جاءَ النَّبيُّ ﷺ قالت: يا نَبيّ اللهِ ، إنَّ عُمَرَ قالَ كَذا وَكَذا.

قَالَ: «فَما قُلْتِ لَهُ؟».

قالتْ: قُلتُ لَهُ كذا وَكذا.

قالَ: «ليسَ بِأحقَّ بِي مِنْكُمْ ، ولهُ ولأَصحابِهِ هِجرةٌ واحِدَةٌ ، ولكُمْ أَنْتُمْ أَهْلَ السَّفينةِ هِجرَتانِ».

فسَكَتَ عُمرُ رضيَ اللهُ عَنْهُ.. وتمنّىٰ لو كانَ معَ أهلِ السَّفينةِ.. ، لذلكَ فرِحَ جعفرٌ وأسماءُ ومنْ كانَ مَعَهُمْ فَرحاً عَظِيماً لهذا الوِسامِ الرَّفيعِ..!!

إِنَّها الزَّوْجَةُ النَّجيبةُ!!

وَدارَ الزَّمنُ دورتهُ... وبعدَ استشهادِ جَعفر رَضيَ اللهُ عَنْهُ.. زوَّجها رسولُ اللهِ بأبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ.. وولدتْ له (مُحمَّداً) ، وكانَ ذلكَ في حجّةِ الوَداعِ..

ولمَّا ماتَ أبو بَكرٍ تَزوَّجتْ من عليٍّ بن أبي طَالبٍ رضيَ اللهُ عَنْهُ ، فولدتْ لهُ (يَحيى ، وعَوْن)..

وبذلكَ كَانتْ آخرَ زَوْجةٍ لِخيرِ أزواجٍ.. فهيَ زوجةٌ لثلاثةٍ مُبشَّرينَ بِالجنَّةِ ، وعَسَى أن تكونَ معهُمْ فِي الفِردَوْسِ الأَعْلَى..

وتُرتِّلُ (سُعادُ) قَوْلَهُ تَعالى:

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ

لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

وتُتابعُ (أمُّ أحْمَدَ): وَفي السَّنَةِ (٦٠) منَ الهِجرَةِ أَسلمتِ الرُّوحَ الطَّاهرةَ إلى خالقِهَا، فَرضِيَ اللهُ عَنْها ورَحِمهَا:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾

[الفجر: ٢٧ - ٣٠].

وإلى لَيْلَةٍ قادمَةٍ.. وحكايَةٍ جَديدَةٍ
والحَمدُ للهِ ربِّ العالمينَ